

الجلابة ودورهم الحضاري في سلطنتي دارفور ووداي

(١٦٤٠ - ١٨٧٤م)

د. عثمان عبدالجبار عثمان *

Abstract :

The term Jallaba (Traders and Merchants who provide goods from Northern Sudan to other areas) was used to name the inhabitants of Nile areas whom migrated to the Western areas of Kordufan and Darfur, they wandered as far as widdai for commercial purposes.

Thus, they have contributed greatly in increasing the commercial activities unit they achieved a commercial centres in the areas which extend from Kordufan to Chad lake basin.

The Jalleba achieved a great political dominance which made them closer to the Sultans of these countries and hence influenced the political life

مستخلص

أطلق مصطلح الجلابة علي سكان المناطق النيلية الذين هاجروا غرباً إلى كردفان ودارفور، ووصلوا بعيداً حتى وداي للعمل بالتجارة، وهؤلاء الجلابة كانوا من الدناقلة والمحلس والجعليين والشايقية وغيرهم من سكان شمال السودان، بالإضافة إلى أهالي سنار. وتحتل دارفور وكردفان اليوم الأجزاء الغربية من السودان، أما وداي فتقع إلى الغرب منهما، وتشكل الآن الجزء الشرقي من تشاد.

وقد وظف الجلابة خبراتهم التجارية التي حصلوا عليها من خلال التجارة مع مصر في ترقية وتطوير أعمالهم التجارية في هذه المناطق التي هاجروا إليها، فأسهموا بنصيب كبير في زيادة النشاط التجاري فيها، حتى سيطروا سيطرة مطلقة علي مقاليد هذا النشاط في المنطقة الممتدة من كردفان حتى حوض بحيرة تشاد.

♦ أستاذ مساعد، قسم التاريخ، كلية التربية، جامعة الفاشر.

وتضافرت عدة أسباب دفعت الجلالة للهجرة غرباً، ولعل من أهمها الاضطراب الأمني الذي ساد في مناطقهم الأصلية منذ بدايات القرن التاسع عشر حتى نهاياته، والذي اضطرهم للهجرة إلى مناطق كانت تعدهم بالأمن والريح الوفير. وفي دارفور أسس الجلالة مدينة كوبي التجارية، والتي تقع شمال غرب مدينة الفاشر، وقد تطورت مدينة كوبي، حتى صارت ثاني أكبر مدينة تجارية في السودان بعد المسلمية آنذاك، أما في وداي فقد أسس الجلالة مدينة نمر و التي كانت تقع بالقرب من أبشي ومن خلال الهمنة التجارية التي فرضها الجلالة علي واقع الحياة الاقتصادية في كل من دارفور ووداي، فإنهم حصلوا أيضاً علي نفوذ سياسي كبير، فكانوا قريبين من سلاطين هاتين الدولتين، وبالتالي أثروا في مجريات الحياة السياسية هناك.

المقدمة :

يقصد بالجلالة سكان المناطق النيلية الذين هاجروا غرباً إلى كردفان ودار فور، ووصلوا حتى وداي للعمل بالتجارة، من الدناقلة والمحس والجعلين والشايكية وغيرهم من سكان شمال السودان بالإضافة إلى أهالي سنار.^(١) وقد سُميت هذه العناصر أيضاً بالجلالة في المناطق التي لم ينتشر فيها الإسلام بصورة واسعة في جنوب السودان وجنوب كردفان، حيث درجوا على مزاوله مهنة التجارة في هذه الأجزاء.^(٢) ومصطلح الجلالة مشتق من (جلب) وهو ما يحمل ويجلب من بلد إلى آخر^(٣) وهو يدل على مجموعات التجار التي تسافر في قافلة من الإبل من مكان لآخر وتتاجر بما تحمل.^(٤) تعني جلالة أو جلابية أو جلاب أيضاً الرداء الخارجي الذي يُلبس في بعض أنحاء المغرب، وبالأخص في معظم جهات مراكش، وفي غرب الجزائر وجنوبها. وهناك من

(1) Browne, w. cr: Travels in Africa, Egypt, and Syria From 1792- 1798 London 1799,P241

(2) ود ضيف الله ((محمد نورين ضيف الله)) كتاب الطبقات في خصوص الأولياء والصالحين والعلماء والشعراء في السودان، حققه وعلق عليه وقدم له يوسف فضل حسن - الخرطوم ١٩٩٢م، ص٥٨

(3) المصباح المنير، بلا تاريخ، ص١٠٤

(4) ود ضيف الله، المصدر السابق، نفس المكان.

يقول إن كلمة جلابة يقصد بها رداء الجلاب أو بائع الرقيق^(١). ويبدو أن هذا المصطلح يشير إلى مهنة هؤلاء الجلابة لا إلى مجموعة إثنية محددة. وقد برز مصطلح الجلابة أولاً في مصر لأن المجموعات الأولى منهم كانت من أصول مصرية، وبعض السودانيين الذين كانوا يسكنون القاهرة. وقد ارتبط مصطلح الجلابة في بداياته بتجارة الرقيق^(٢). وأنشأ التجار المصريون في القاهرة الذين كانوا يتعاملون مع المنتجات السودانية - وكالة سميت بوكالة الجلابة^(٣) وفيها كانت تستقر القوافل الآتية من مصر، حيث تحط رحالها هناك، وعندما هم الرحالة محمد بن عمر التونسي بالسفر إلى دارفور للبحث عن والده كان يتردد عليها لمعرفة أخباره، بعد وصول قافلة دارفور، ويبدو أن التجارة مع دارفور كانت عماد عمل هذه الوكالة ومجال نشاطها الرئيسي^(٤).

ومع نشأة السلطنات الإسلامية في بلاد السودان الشرقي والأوسط، تحقق شيء من الوحدة والأمن والاستقرار، فازدهرت التجارة بانسياب المعاملات التجارية، وساهم ذلك في ظهور مجموعات الجلابة الذين سيطروا مع حلول القرن السابع عشر للميلاد على تجارة سنار ودارفور^(٥).

وقد لعب الجلابة دوراً هاماً في تطوير النشاط التجاري والاقتصادي في المناطق التي عملوا فيها، إن لم نقل أنهم كانوا القوى الرئيسية المحركة لعجلة التجارة فيها، وبالأخص في كل من دارفور ووداي. وقد توغل هؤلاء الجلابة في دواخل إفريقيا حتى وصلوا برنو، وهنالك وصف دقيق أورده بوكرهارت (Burckhardt)^(٦) للطريق الذي

(1) دائرة المعارف الإسلامية، مادة جلب، دار الفكر بيروت، بلا تاريخ، ج ٧، ص ٥٧، ٥٦

(2) Khartoum 2003-P67، Yusuf Fadl Hasan : Studies in Sudanese History

(3) O. Fahey, R. S : State and society in Dar Fur, London, 1980, p. 140

(4) محمد بن عمر التونسي : تشييد الأذهان بمسيرة بلاد العرب والسودان، القاهرة، ١٩٦٥م، ص ٣٩.

(5) Yousif Fadl Hasan, Op. Cit, p 68

(6) بوكهارت (Burckhardt) ١٨٧٤ - ١٨١٧ هو رحالة أوروبي ولد في بازل بسويسرا ثم دخل في خدمة الجمعيات الكشفية الانجليزية، وزاره المناطق الشمالية من السودان في بدايات القرن التاسع عشر،

انظر :

Burckhardt, John Lewis, Travels in Nubia, London 1823, pp 2,3

كان يسلكه الجلابة من شندي إلى دارفور ثم بحيرة تشاد حتى يصلوا إلى برنو وولايات الهوسا في بلاد السودان الغربي^(١).

ومما سهل للجلابة مزاوله نشاطهم التجاري في دارفور ووداي، معرفة سكان شمال السودان بالمنطقة، وهجراتهم القديمة إليها، وإسهامهم الفاعل في نشر الإسلام والثقافة الإسلامية والعربية فيها مع غيرهم من العناصر العربية التي قدمت إلى دارفور وبلاد السودان الأوسط والغربي عموماً^(٢). والذي حفز الجلابة أيضاً وشجعهم لتركيز نشاطهم التجاري في دارفور ووداي هو أن هذه المناطق قاصية ونائية وبعيدة عن السواحل، وبلاد السودان الأوسط بالأخص تعد من أبعد البقاع عن السواحل، إذ أنها تبعد عنها بحوالي ١٠٠٠ ميل، لذلك يعتبرها بعض الباحثين بأنها نهاية العالم^(٣).

وكان لعظم الدور الاقتصادي الذي أسهم به الجلابة في المنطقة أن تكون لهم تأثيرات واضحة في الحياة السياسية والاجتماعية في كل من دارفور ووداي؛ فكان أن أسهموا بنصيب مقدر في البناء الحضاري لهاتين السلطنتين.

وتحتل دارفور اليوم الأجزاء الشرقية من جمهورية السودان، أما وداي فتقع إلى الغرب منها مباشرة وتحتل الأجزاء الشرقية من جمهورية تشاد، وقد شهدت هاتان المنطقتان بروز دولتين إسلاميتين عُرفتاً بسلطنتي دارفور ووداي في القرن السابع عشر للميلاد، وظلتا قائمتين حتى اجتاحتها الاستعمار الأوربي في بدايات القرن الماضي.

ويرى أوفاهي (O'Fahey) أن التجزؤ قد بسطوا نفوذهم على دارفور ووداي قبل انتشار الإسلام فيهما، وأنهم ربما يعودون في أصولهم إلى بلاد النوبة. التي نزح منها الجلابة غرباً، بل يلمح إلى أن أحمد المعقور نفسه الذي أسهم في تحوّل سلطنة دارفور إلى الإسلام ربما كان نوبياً^(٤).

Burckardt, Op. Cit, pp 432 FF (1)

(2) عثمان عبد الجبار عثمان : تاريخ الزغافة في السودان وتشاد، القاهرة، ٢٠٠٦م، ص ٢٠ وما بعدها.

(3) عثمان عبد الجبار عثمان : السنوسية ودورها الديني والسياسي في السودان الأوسط في القرن التاسع عشر، رسالة

ماجستير، كلية الآداب، جامعة أم درمان الإسلامية، ١٩٩٢م، ص ١٥٨.

(4) O. Fahey and spawding, J. L, Kingdoms of Sudan London 1971, p 115

أما الزغاوة الذين قامت على أكتافهم إمبراطورية كانم - برنو في القرن الثامن للميلاد، فمن المرجح أنهم هاجروا من بلاد النوبة غرباً حتى بلغوا بلاد السودان الأوسط والغربي، وتذكر الروايات الشفوية في وداي أن عبدالكريم بن يام الملقب ((بجسد الإسلام)) ومؤسس سلطنة وداي الإسلامية ١٦١١م قد قدم من شندي وأنه من الجعليين. بالإضافة إلى ذلك فإن الفور أنفسهم يدعون النسب إلى العباسيين، أي أنهم على صلة بالجعليين أيضاً،^(١) لهذه الاعتبارات جميعاً عد الجلالة حينذاك من العناصر الأصلية والمعتبرة في دارفور^(٢).

ويبدو أن الجلالة قد تمكنوا من الهيمنة على التجارة في كل من دارفور ووداي لخبرتهم في هذا المجال، ولإمساكهم بخيوط التجارة مع مصر عبر درب الأربعين، الذي كان يعتبر من أهم المخارج التجارية آنذاك. لصادرات وواردات كل من السلطنتين. فبالرغم من عودة العلاقات المصرية مع دارفور إلى عصور قديمة، قبل حوالي ٢٠٠٠ سنة ق. م، منذ أيام الفرعون حرقوف^(٣)، لكن من المرجح أن الجلالة هم الذين أخذوا على عاتقهم تجديد هذه العلاقات في العصور الحديثة، بفتح التجارة بين مصر ودارفور، ومنها إلى وداي على نطاق واسع، كما يميل لذلك بروان (Browne)^(٤). فهم الذين كانوا يقودون القوافل ويعملون كخبراء لها حتى أصبح لقب خبير قريناً بعدد كبير من قياداتهم^(٥). وقد تلمس الرحالة بروان (Browne) بنفسه دور الجلالة في تجهيز وإعداد قافلة دارفور التي حملته إلى هذه البلاد، فوصل كوبي ومنها إلى الفاشر في عام ١٧٩٣م، وكان تجار دارفور من الجلالة وغيرهم يعملون على بيع بضائعهم في أسوان وأسيوط بصعيد مصر، وقد يستغرق ذلك شهران، وفي ذات الوقت يهيئون أنفسهم للعودة إلى بلادهم^(٦).

(1) عثمان عبد الجبار عثمان : تاريخ الزغاوة، ص ٤١ وما بعدها.

Nachtgal, Gustay Sahara and Sudan, Vol 4, Dar Fur and Wadai, London 1971, p 353 (2)

Arkeu, A. J. History of the Sudan from the Earlies times to 1821, London 1955, p34 (3)

Op. Cit, p 241 (4)

Nachtgal, Op. Cit, p 255 (5)

Op. Cit, p 182 (6)

وبطبيعة الحال فإن الذي يشرف على القافلة بالإعداد والتوجيه عند خروجها وعودتها هو الذي يسيطر على تجارة البلاد التي تعود لها القافلة. فاقتصاد سلطنتي دارفور ووداي كان يعتمد كلياً على تجارة القوافل.

أسباب هجرة الجلابة إلى دارفور ووداي :

ومن الأسباب التي دفعت الجلابة للإقبال على تجارة دارفور ووداي وغيرها ، ومن ثم التحكم فيها والهيمنة عليها أنهم كانوا ينتمون إلى مناطق تميزت بسهولة الاتصال مع مصر ، وعليه فأنها كانت متقدمة ومتفوقة حضارياً أكثر مما كان عليه الحال في وداي ودارفور. كما أن كلاً من دنقلا والمحس والبلاد الواقعة على النيل حتى سنار كانت مسرحاً للفوضى والاضطرابات والدمار وسفك الدماء وعدم الاستقرار والانقسامات الداخلية ، فانتشر قطاع الطرق الذين استغلوا هذا الوضع فأرهبوا الناس ، وزرعوا الذعر في قلوبهم ، لهذا هجر الجلابة مواطنهم الأصلية وفضلوا النزوح إلى دارفور ووداي لممارسة التجارة والأعمال الحرفية فيها. ومما شجع الجلابة أيضاً للاتجاه غرباً ، أن هذه البلاد كانت تعدهم بالأمن والاطمئنان الذي طالما فقدوه ، وبالعربح الوفير أيضاً^(١).

وعندما امتد الحكم التركي المصري إلى السودان حمل معه مساوئه وأوزاره ، فعانى السكان في شمال السودان ووسطه وكردفان من الضرائب الباهظة وطرق جبايتها المشينة ، والتي كانت السمة البارزة لهذا الحكم الجديد ، فتشرد من جرائها السكان ، وهجروا ديارهم ، فضي مديرتي دنقلا وبربر فر عدد كبير من السكان وهجروا مزارعهم وسواقيهم. كذلك فعل بعض أهالي الجزيرة وكردفان وكانت دارفور التي لم تمتد إليها الإدارة التركية إلا في عام ١٨٧٤م ملجأ لبعض هؤلاء الفارين^(٢).

ومن جهة أخرى طغى نفوذ الشايقية في أواسط القرن الثامن عشر ، وقويت شوكتهم ، فأخذوا يهاجمون ممالك النوبة الأخرى ، فتغلبوا عليها جميعاً وخربوا دنقلا

Browne, Op. Cit, p 241 (1)

(2) بشير كوكو حميدة : ملامح من تاريخ السودان في عهد الخديوي إسماعيل ، الخرطوم ، ١٩٨٣م ، ص ٧٧ ، ٧٨ .

العجوز وقتلوا الكثير من أهلها. وفي مستهل القرن التاسع عشر قدم المماليك إلى شمال السودان فارين بدورهم من حملات محمد علي الانتقامية ضدهم، فأضافوا بذلك عاملاً جديداً من عوامل عدم الاستقرار في المنطقة، فسرعان ما اصطدموا مع الشايقية وبقية سكان المنطقة، في صراع لفرض الهيمنة والنفوذ، واستمرت فوضى هؤلاء حتى جاء الغزو التركي المصري عام ١٨٢١م، والذي كان من أهدافه استئصال شأفة هؤلاء، والقضاء عليهم^(١).

كما أجبرت حملات الدفتردار الانتقامية أيضاً الجعليين على إخلاء بلادهم خاصة بعد تحطيمه لمدينة شندي التي كانت تعد آنذاك العاصمة التجارية لشمال السودان، فنزح عدد كبير من الجعليين إلى الخرطوم حيث عمل بعضهم تجاراً ومسبيين، ينتقلون من قرية إلى قرية، وليس لواحد منهم (رفيق إلا سيف كبير فوق ظهره، وحمار قوي يتقدمه محملاً بالأقمشة القطنية والتوابل والعطور العربية والخضاب والكحل، وهو في رحلته هذه لا يكلف نفسه شططاً، فإذا مر عام أو بعض عام رجع إلى عائلته في الخرطوم)^(٢).

أما الدناقلة فقد جذبهم بريق مدينة الخرطوم الصاعدة والنامية تجارياً، والتي استطاعت أن تغطي وتسلب من مدينتي شندي وبربر أهميتهما التجارية. وكان الدناقلة الأكثر نشاطاً فيهما، بل لاحقاً في الخرطوم أيضاً، وقد أسهم ضيق الرقعة الزراعية حول النيل في شمال السودان في استمرار ثقافة الهجرة للبحث عن أسباب أخرى للعمل والارتزاق، فكان أن وصل الجلاية إلى دارفور ووداي^(٣).

وربما تعود سطوة الجلاية التجارية وبالأخص الدناقلة إلى موقع بلادهم دنقلا التي كانت تحتل موقعاً ممتازاً في الطرق التجارية التي تخترق صحراء بيوضة من سنار وشندي وكردفان إلى مصر، لذلك فإن الدناقلة والجعليين قد تراكمت عليهم الخبرات التجارية التي مكنتهم من تحصيل وتكديس الأموال، مما شجعهم وحفزهم

(١) نغوم شقير: تاريخ السودان، بيروت، ١٩٨١م، ص ١٣٩، ١٤٠.

(٢) أحمد أحمد سيد أحمد: تاريخ مدينة الخرطوم تحت الحكم المصري ١٨٢٠، القاهرة، ٢٠٠٠م، ص ٢٤٧.

(٣) نفس المرجع، ص ٢٤٥.

على المغامرة بها في مناطق جديدة، خاصة في ظل تدهور التجارة في بلادهم نتيجة للاضطراب السياسي والأمني، فكان أن هاجر هؤلاء إلى كردفان ودارفور^(١)، ووصلوا بعيداً حتى وداي، وبعيداً حتى ولايات الهوسا في بلاد السودان الغربي^(٢).

الجلابة في دارفور:

توزع الجلابة في دارفور التي سكنوها منذ قرون في مناطق معينة، وبالقرب من سكنى المجموعات العربية، وكانت مدينة كوبي والقرى المحيطة بها من أهم مناطق استقرارهم، حيث كان يعيش فيها حوالي (ألفين) منهم، أما في العاصمة الفاشر فقد قدر عددهم بحوالي (مأتين) منزلاً، وكان عددهم فيها ما بين ألف إلى ألف وخمسمائة. وكذلك سكن الجلابة في مدن دارفور التجارية الأخرى، كبكايبه، ومنواشي، وشعيرية، وحضرة النحاس. وقد قدر نختغال (Nachtigal) عدد الجلابة في دارفور عموماً بحوالي خمسة ألف أسرة وذلك أثناء زيارته لها في عام ١٨٧٤م^(٣).

وكان أكثر الجلابة عدداً في دارفور أولئك الذين جاءوها من دنقلا، ومنهم يختار السلطان الخبير أو رئيس الجلابة، ثم يأتي بعدهم الجعليين، ثم مجموعات الجلابة الأخرى. ولقب خبير يعني الزعيم أو القائد أو مرشد الطريق، وكان يطلق على كل جلابي كُلف من قبل السلطان، بقيادة قافلة من قوافل دارفور المتجهة إلى مصر عبر درب الأربعين^(٤).

وقد قرب سلاطين دارفور الجلابة إليهم وخصوصهم بالمودة، فيما قابل الجلابة هذه المعاملة الطيبة بالولاء والوفاء والإخلاص. وتعود هذه العلاقة الحسنة بين السلاطين وأتباعهم الجلابة، إلى خبرة هؤلاء وحسن إدارتهم للعمليات التجارية، لأن السلاطين أنفسهم كانوا تجاراً كباراً، حيث هدفوا من خلال ممارستهم للتجارة الحصول على الاحتياجات الضرورية للدولة^(٥).

Yosuf Fadl Hasan, Studies in Sudanese History, Khartoum 2003, p 68 (1)

Nachtigal, Op. Cit, p 354 (2)

I bid, p 353 (3)

I bid, p 354 (4)

O. Fahey, T. S Religion and Trade in Kayra Sultanate of Dar Fur in Sudan In Africa, edited by Yusuf Fadl (5)

Hasan, Khartoum 1985, p 93

فغير التجارة الخارجية التي كان يسيطر عليها الجلاية كان سلاطين دارفور ووداي يحصلون على الأسلحة والذخائر لدعم وتقوية جيوشهم التي كانت تتورط كثيراً في حروب داخلية وخارجية باستمرار، ومن خلال هذه التجارة كانوا يحصلون على سلع الرفاهية آنذاك كالسكر والشاي والبن والعمود وغيرها وذلك للاستخدام الخاص، ولإهدائها لزعماء القبائل والضيوف^(١).

ويقف خطاب السلطان إبراهيم قرض إلى الجلاية من أهل كوبي، دليلاً على اهتمام سلاطين الفور بالجلاية. فقد أبلغهم في الخطاب بخبر وفاة والده السلطان محمد حسين ١٨٧٤م (إلى حضرة محمود والإمام أحمد طه وكافة تجار كوبي وحواليها، أما بعد : فالذي نعرفكم به أجرتنا الله وإياكم في مصيبة سيدكم ووالدكم المرحوم السلطان محمد حسين، توفى إلى رحمة الله، وأنا توليت الملك... تعلموا به وربنا يلزمنا الصبر الجميل)^(٢).

وعلاوة على هذا الدور الاقتصادي كان الجلاية في دارفور من المجموعات المميزة، لأنها حوت من بين رجالها ممن حظوا بثقافة عالية، فكان منهم العلماء والقضاة والسفراء، فقد درج سلاطين دارفور أن يعهدوا إلى الخبراء من الجلاية بنقل رسائلهم^(٣). كما استمر الجلاية يتدفقون إلى دارفور بغرض التجارة، فقد استمر العلماء منهم في النجوع والنزوح إلى هذه البلاد، بل شق بعضهم طريقه غرباً فوصل وداي. وقد أشار ود ضيف الله في طبقاته إلى عدد منهم : الشيخ أرباب الخشن أو أرباب العقائد، والشيخ أبو سرور الفضلي الجعلي،^(٤) والشيخ أبو زيد بن عبد القادر الذي سكن كساب الواقعة شمال كتم ثم نزح إلى السلطان يعقوب عروس سلطان وداي (١٦٨١ - ١٧٠٧م) الذي أجله وأكرمه^(٥).

(١) عثمان عبد الجبار عثمان : تاريخ الزغاوة، ص ١٩٧.

(٢) التونسي، المرجع السابق، ص ٤١٣.

(٣) Nachtigal, Op. Cit, p 123

(٤) ود ضيف الله، المرجع السابق، ص ١٠٠، ١٠٥.

(٥) يوسف فضل حسن، المرجع السابق، ص ١٥٠.

ومن الأسباب التي جذبت الجلالة إلى سلاطين دارفور أيضاً، المرونة التي اتسموا بها واللفظ واللين اللذين تحلوا بهما في تعاملهم مع الآخرين. فقد كان الجلالة من أكثر المجموعات التي تيسر للرحالة براون التعامل معها ومخالطتها إبان زيارته لدارفور ١٧٩٣م - ١٧٩٦م^(١).

أما نختقال الذي زار دارفور ووداي في الفترة ما بين ١٨٧٢ - ١٨٧٤م، فقد انبهر بحسن معاملة الجلالة له لدرجة يمكن القول أنه كان منحازاً إليهم عند حديثه عن المجموعات الأخرى في كل من دارفور ووداي، وعند وصوله إلى الفاشر استضافه الجلالة في المربع أو الجزء المخصص لهم، والذي كان يطلق عليه مربع الجلالة^(٢). ويسمى مربع الجلالة اليوم ((حي الوكالة)) والذي يقع شرق سوق الفاشر الكبير^(٣). وربما كان لهذا الاسم علاقة بوكالة الجلالة في القاهرة.

ومن أبرز الجلالة الذين لعبوا دوراً سياسياً في تاريخ دارفور، محمد خالد زقل الذي ولد وترعرع فيها ثم بدأ حياته تاجراً بسيطاً، بعد أن ورث هذه المهنة عن أبيه، الذي قضى شطراً من حياته بوداي، ثم عاد إلى دارفور واستوطن بها، ولما ضم الزبير باشا دارفور إلى الإدارة التركية ١٨٧٤م، انخرط زقل في خدمتها، فتقلب في مناصب عدة، حتى أصبح مديراً لداره (شرق نيالا - جنوب دارفور). ولما انتصرت المهدي في دارفور، كان زقل من أوائل الذين تحمسوا لهذه الدعوة الوليدة في غرب السودان، ولبوا نداءها، لصلة القرى التي تربطه بالإمام محمد أحمد المهدي^(٤).

وكان ظهور محمد خالد زقل بهذه الصورة القوية على المسرح السياسي في دارفور، هي بداية انخراط الجلالة في الحلبة السياسية وعلى نحو مؤثر في هذا الإقليم. كما أن انتصار الزبير باشا على السلطان إبراهيم قرص يمثل دلالة واضحة على النجاح الكبير الذي حققه الجلالة في أعمالهم التجارية بعد كد وجهد وصبر طويل آخذين في الاعتبار ضرورة التحديث والمواكبة خاصة فيما

(1) Browne, Op Cit, p 227

(2) Nachtigal, Op. Cit, p 259

(3) محمد صالح عطا المنان (أبو كوع) شايقي ٨٧ سنة، الفاشر ١٠/٣/٢٠٠٨م.

(4) موسى مبارك الحسن : تاريخ دارفور السياسي ١٨٨٢ - ١٨٩٨م، الخرطوم، ١٩٩٥م، ص ٨١.

يتعلق بالتسليح وإعداد القوة لمجابهة المخاطر والمهددات التي كانت تعيق مشروعاتهم التجارية وطموحاتهم آنذاك. وتعود هزيمة السلطان إبراهيم قرص الذي قاتل قتال الأبطال وشهد له الزبير نفسه بالبسالة والشجاعة، وتعود أسباب هزيمته إلى التخلف التقني لجيش السلطان وبعده عن الذي كان يجري خارج دارفور، فكان أن انهزم السلطان من شخص تاجر طموح. ولم يمت هذا الطموح بحبس الزبير في القاهرة، بل تجدد في شخصية تابعه رابع الزبير أو رابع فضل الله الذي أشاد بكده وعرقه إمبراطورية كبرى في السودان الأوسط، بعد أن دوخ دولاً وممالك، فكان أن تربع على عرش إمبراطورية كانم - برنو حتى سقوطها في يد الغزو الفرنسي في ١٩٠٠م.

وسقوط سلطنة دارفور على يد الزبير باشا في ١٨٧٤م، وإمبراطورية كانم - برنو بيد تابعه رابع الزبير أو رابع فضل الله سنة ١٩٠٠م، بعد أن عمرت هذه الإمبراطورية لأكثر من ألف عام، لدليل واضح على قوة النظم التي أرساها الجلالة في هذه الجهات، ودليل أيضاً على كبر الطموح الذي تحلوا به حتى تنشئ لهم إشادة هذا المجد العالي. فقد بدأوا نشاطهم كالجلالة الآخرين همهم التجارة وجمع المال، ثم ختموا حياتهم بالملك والسلطان، وشأنهم في ذلك شأن أصحاب الدعوة والإصلاح، الذين يبدأون نشاطهم بالمشيخة والإرشاد ثم تنتهي بالملك والسلطان.

استخدم في دارفور مصطلح آخر للإشارة به إلى بعض سكان المناطق النيلية، وهو مصطلح (البحارة). ويقصد بهؤلاء المجموعات التي كانت تعمل بتجارة الرقيق في جنوب السودان من أفراد الشركات التجارية القادمة من الخرطوم^(١). ومن أشهر هؤلاء التجار كرم الله كرقساوي وأخوه محمد كرقساوي. وهما من الدناقلة الذين كانوا يمتنون التجارة في بحر الغزال، وشاركوا بفاعلية في أحداث الثورة المهديّة فيها، وفي جنوب دارفور، حيث اصطدموا مع مادبو زعيم الرزيقات، والثائر ضد حكم الخليفة عبداللّه^(٢).

(1) O. Fahey, Op. Cit, p 89

(2) موسي المبارك ن نفس المرجع، نفس المكان.

وفي دارفور عاش أكثرية الجلالة في كوبي، والتي ربما كانت ثاني أكبر مدينة تجارية في السودان بعد مدينة المسلمية قبل أن تبرز مدينة الخرطوم كعاصمة للحكم التركي في السودان. وكانت مدينة كوبي تحتل موقعاً ممتازاً في طريق درب الأربعين، الذي يصل دارفور بمصر^(١). وشكل الجلالة أكبر مجموعة سكانية في مدينة كوبي، وبذلك فرضوا عليها هيمنتهم ونفوذهم التجاري والاجتماعي فكان منهم الخبيرز عيم التجار، ومنهم أيضاً الفقهاء والقضاة والعلماء. كما عاش الجلالة في القرى المحيطة بكوبي مثل حلة حسن التي كان يسكنها الدناقلة ويحكمها الخبير حسن ود نصر^(٢). ومما زاد من غلبة الجلالة في كوبي، أن معظم سكانها الآخرين كانوا من الأجانب والأغراب، من مصريين، وتونسيين، وطرابلسيين، وآخرين يأتونها ويغادرونها مع القوافل. وهنالك مجموعات أخرى من جلالة كوبي تزوجوا في دارفور، وأصبحوا مواطنين فيها تابعين للسلطان. وكان قاضي كوبي هو الفكي عبدالرحمن من سنار، تخرج من الجامع الأزهر، وكان مشهوراً بالعدل والحسم.^(٣) أما المجموعات المحلية القليلة التي سكنت كوبي فهم من الفور، بينما كان الزغاوة والعرب يقيمون في المناطق القريبة منها مثل سويني غرب كتم^(٤).

وفي دارفور كان محور نشاط الجلالة هي تجارة الرقيق، ولما تم إلغاء هذه التجارة وإبطالها بصورة نهائية مع مجيء الحكم الانجليزي سنة ١٩١٦م اتجه الجلالة إلى مزاولة أنشطة تجارية أخرى. وفي الفاشر انصرف معظم الجلالة إلى العمل في تجارة التمباك، وكان من أبرز تجار الجلالة في عهد السلطان علي دينار ١٨٩٨ - ١٩١٦م، بشير نصر والد اللواء حسن بشير نصر وزير الدفاع في عهد الفريق إبراهيم عبود، وكان بشير نصر رئيساً للتجار الجلالة، وكانت الشجرة المعمرة القائمة الآن بمجلس ولاية شمال دارفور التشريعي تتوسط منزله آنذاك. كما انخرط عدد كبير من الجلالة

(١) ريتشارد هل : علي تخوم العالم الإسلامي، حقبة من تاريخ السودان ١٨٢٢ - ١٨٤١م، ترجمة عبدالمعظم محمد أحمد عكاشة، الخرطوم، ١٤٠٧هـ/١٩٨٧م، ص ٧١، ٧٢.

(٢) Browne, Op. Cit, pp 237 - 243 وكذلك انظر التونسي، المرجع السابق، ص ٤١٢، ٤١٣.

(٣) Browne. Op. Cit, pp 242-243

(٤) I bid, p 236

في خدمة السلطان علي دينار، وكان من أشهرهم القاضي إدريس عبدالله قاضي السلطان أو رئيس القضاة في الدولة آنذاك^(١).

وعموماً عاش الجلاية بهدوء وما زالوا في دارفور. وتمازجوا وتصاهروا مع القبائل الأخرى، التي كانت على وفاق تام معهم. ومن أشهر القبائل التي تصاهر معها الجلاية، الزغاوة والعرب وغيرهم.

واليوم ما فتى عدد كبير من الجلاية يعيش في دارفور بينما فضل آخرون الهجرة إلى الخرطوم بسبب الظروف الأمنية التي يعاني منها هذا الإقليم، كما جذب العمل في الدواوين الحكومية عدداً كبيراً من أبنائهم، لان بريق ولعان التجارة قد قلا إلى حد كبير، لانخرائط معظم سكان دارفور في خضمها^(٢).

الجلاية في وداي :

وفي وداي تمتع الجلاية أيضاً بتقدير ونفوذ كبيرين، فقد كان كل التجار الكبار فيها من الغرباء، وبالأخص الجلاية من دارفور، والمجابرة من بنغازي (٤٨)، فمنذ تأسيس مملكة وداي في الفترة ١٦١١ - ١٦٣٥م، بدأت القوافل التجارية تصلها بانتظام من شندي وسنار عابرة دارفور، وفي عام ١٧٥٠م، وصل عدد كبير من الجلاية إلى وداي بتشجيع واستلطاف من السلطان محمد جودة (١٧٤٧ - ١٧٩٥م) الذي خصص لهم منطقة نمر Nimro مقراً وسكناً لهم. وتقع نمر بالقرب من وارا عاصمة وداي آنذاك. وتدرجياً تمكن الجلاية في وداي من السيطرة على حركة القوافل التجارية بين وداي، باقرمي، كانم - برنو من جهة وبين وداي ودارفور وكردفان من جهة أخرى، وبالتالي فرضوا هيمنتهم الاقتصادية على حوض بحيرة تشاد^(٣).

وجلاية نمرو أغلبهم من دنقلا، والخرطوم، وسنار وكردفان، وكانت القرية الرئيسية في نمرو تتكون من (مائتين إلى ثلاثمائة) من السكان، وحولها عدد من

(1) محمد صالح عطا المنان (أبو كوع) ٨٧ سنة شايقي، الفاشر ٢٠٠٨/١/١٠م، محبوب احمد قنديل ٧٠ سنة شايقي، الفاشر ٢٠٠٨/٣/٩م.

(2) نفس المرجع.

(3) عبدالرحمن عمر الماحي : تشاد من الاستعمار حتى الاستقلال ١٨٩٤ - ١٩٦٠م، القاهرة، بدون تاريخ، ص ٤٣.

القرى الصغيرة بلغت حوالي عشرين قرية. وكان لكل قرية شيخ ينظم شؤونها^(١)، ومن أشهر الجلابة الذين تقربوا إلى سلاطين وداي، الحاج أحمد تنقاتقا، الذي هاجرت أسرته من دنقلا إلى دارفور قبل عدة أجيال، ودرس في الأزهر علومه الدينية، ثم خدم في بلاط سلاطين الفور قبل أن يرحل إلى وارا العاصمة قبل أبشي - في عصر السلطان محمد شريف ١٨٣٥ - ١٨٥٨م، وعندما وصل ابنه السلطان علي إلى عرش وداي (١٨٥٨ - ١٨٧٤م)، أصبح الحاج أحمد تنقاتقا من أصحاب الحظوة لديه، فكان صديق السلطان ومستشاره، لذلك عينه مشرفاً على جزء من مدينة أبشي العاصمة الجديدة لوداي، والتي نقل إليها السلطان محمد شريف مقر الحكومة من العاصمة القديمة وارا. وفي عهد السلطان علي ازدادت أعداد الجلابة في وداي، نتيجة للمكانة المرموقة التي تمتعوا بها في عهد هذا السلطان^(٢).

وقد تمخضت عن هذه العلاقة الطيبة التي جمعت الجلابة بالسلطان علي صلة أخرى، هي صلة المصاهرة بزواج السلطان من جلابة نامرو، إلا أن أبناء السلطان علي من زوجته الجلاية هذه قد حُرِّموا من الوصول إلى السلطة بوفاته^(٣)، لأن أهل وداي كانوا يفضلون أن تكون والده السلطان الجديد من القبائل الأصلية في وداي خاصة من مجموعة المايا أو أبي ستون^(٤).

لهذا السبب تم تنحية أبناء السلطان علي فتولى عرش وداي أخوه السلطان يوسف ١٨٧٤ - ١٨٩٨م وفي عهده شهدت العلاقات بين دارفور ووداي توتراً واحتقاناً ملحوظين، بعد أن ناصب السلطان يوسف المهدي العداء، وأخذ يكيدها ويحرض زعماء القبائل الحدودية في دارفور للثورة ضد الأنصار، وكادت الحرب أن تقع بين الطرفين في حالات كثيرة، لو لا توجيه الخليفة عبد الله لقادته في دارفور بعدم مهاجمة السلطان يوسف، وكانت أكثر الفترات هدوءاً في العلاقات بين الطرفين هي فترة تولي محمد خالد زقل لعمالة دارفور ١٨٨٤ - ١٨٨٦م، الذي سلك درب الحكمة والمرونة في معالجة

(1) Nachtigal, Op. Cit, pp 59, 171

(2) Ibid, pp 55, 245

(3) Ibid, p 398

(4) عثمان عبد الجبار عثمان : تاريخ الزغاوة، ص ١٦٧.

المشكلات مع وداي، بل أرسل الحاج كرار موفداً من قبله ومحملاً بالهدايا إلى السلطان يوسف، وتكونت الهدايا من ثلاثة أو أربعة مدافع وعدد من الجنود لتشغيله^(١). وربما كان الحاج كرار من جلاية دارفور، وأغلب الظن أن محمد خالد زقل قد استفاد من العلاقات التي أرساها والده في وداي عندما عمل تاجراً بها، في تلطيف الأجواء، وإزالة الهواجس من نفس السلطان يوسف، فكان أن خيم جواً من الهدوء في علاقات الطرفين، ومن غير شك استفاد جلاية وداي من هذا الهدوء وظلوا يواصلون نشاطهم التجاري، بدون أن يعكر صفوه معكر.

وبعد وفاة السلطان يوسف ١٨٩٨م تنازع أربعة من أبنائه السلطة، وكان من أشهر المنافسين، السلطان أحمد الغزالي الذي تولى عرش وداي لفترة قصيرة، ثم احتفى أخيراً بالفرنسيين الذين احتلوا باقرمي، وتعود شهرة أحمد الغزالي لعدائته واستقامته، وقد لعب الجلاية دوراً هاماً في نجاح ثورته التي أوصلته إلى عرش وداي، لأن والدته كانت ابنة تاجر دنقلاوي، والجلاية آنذاك يشكلون مجموعة قوية ومؤثرة في وداي^(٢).

لكن أحمد الغزالي لم يستمر في السلطة طويلاً إذ تمكن أخوه دود مره من التغلب عليه عام ١٩٠٢م ليبقى في السلطة حتى مجيء الاحتلال الفرنسي لوداي عام ١٩٠٩م^(٣).

وبالنظر إلى هذا الوضع المريح الذي وحد فيه الجلاية أنفسهم في وداي، فقد اتخذوا منها قاعدة للانطلاق والانتشار في كل بلاد حوض بحيرة تشاد، لذلك كانوا يتغيبون مدداً طويلة عن منازلهم في شمال ووسط السودان أو دارفور، وقد يتغيب البعض لحوالي العشر سنوات، لذلك درج بعض من هؤلاء الجلاية على الزواج في بعض المناطق التي تطيب لهم الإقامة بها^(٤). أما البضائع التي كان يأخذها الجلاية إلى دارفور ووداي فتمثلت في الملابس القطنية والمواد الزجاجية وأدوات الزينة والعطور والسلع الكمالية

(1) نفس المرجع، ص ٢٣٩ وما بعدها.

(2) Sudan Intelligence Report 2/15/125

(3) Nachtigal, Op. Cit, p 400

(4) Sudan Intelligence Report No. 113 December 1903, 5/4/15

الأخرى^(١)، ويجلبون من هذه البلاد الرقيق وريش النعام وسن الفيل والنحاس والقوور والجلود والذهب والصمغ^(٢).

لكن يجب علينا ألا نعتقد أن الجلابة قد عاشوا وعملوا في وداي دونما مشكلات، فقد كانوا يواجهون أحياناً مخاطر النهايين وقطاع الطرق، وبعض المصاعب البيئية كالملايا، وأعداء النجاح الذين كان يغيظهم سيطرة الجلابة على اقتصاد وداي وبالأخص الدناقلة منهم الذين أصبحوا مكروهين من قبل بعض السكان في وداي حتى غدا من الإهانة التي لا تغتسل إلا بالدم أن يقال لأحد من الناس دنقلاوي أو حدادي^(٣).

خاتمة :

دفعت الأحوال السياسية والاقتصادية الجلابة لهجرة مواطنهم في شمال ووسط السودان والاستقرار في كردفان ودارفور، وعملوا في التجارة وبشتى صنوفها، وعندما استبانوا مدى الفرص الواسعة التي توفرت لهم، زادوا من نشاطهم فتوغلوا غرباً حتى وصلوا وداي، وبعيداً حتى ولايات الهوسا، وبفضل الخبرة والمرونة التي كانوا يتمتعون بها سيطروا على مداخل ومخارج التجارة. فقد عمل الجلابة على توظيف الخبرة التي اكتسبوها من التجارة مع مصر في توفير السلع الضرورية التي كان يحتاج إليها سكان هذه البلاد، البعيدة عن الشواطئ.

وكان من أبرز النجاحات السياسية التي حققها الجلابة، غزو الزبير باشا لدارفور وضمها إلى الإدارة التركية، واستيلاء رابع الزبير أو رابع فضل الله على إمبراطورية كانم - برنو بعد أن عمرت لأكثر من ألف عام، وكانت هذه النجاحات دليلاً واضحاً على القدرة على التنظيم وحسن الإدارة وقوة الطموح والشكيمة، ولولا تدخل الاستعمار وأدواته لكان للجلابة شأن آخر في عموم بلاد السودان، فالإدارة التركية المصرية لم تترك الزبير وشأنه حتى يهناً بالمجد الذي حققه في دارفور فكان أن لقي

(1) Nachtigal, Op. Cit, p 354

(2) عبدالرحمن عمر الماحي، المرجع السابق، ص ٤٣.

(3) Nachtigal, Op. Cit, pp 57, 120

جزاء سنمار باحتجازه في القاهرة، أما رابع الزبير أو رابع فضل الله فسرعان ما داهمته فرنسا بعد فترة قصيرة من استيلائه على إمبراطورية كانم - برنو.

ومما يدل أيضاً على تفوق الجلالة في النشاط التجاري نشأة وتطور مدينتي كوبي في دارفور ونمرو في وداي، وقد ارتقت الأولى كثيراً حتى غدت ثاني أكبر مدينة تجارية في السودان. وكان الجلالة يمسكون بمقاليذ التجارة فيهما. تفاعل الجلالة مع المجتمعات التي حلوا بها فتزوجوا وتصاهروا مع السكان المحليين، لأن أغلبهم كانوا يتركون زوجاتهم في أوطانهم، فقربهم ذلك إلى قلوب من استضافوهم خاصة أنهم ابتعدوا عن التورط في الخلافات والمشكلات والصراعات المحلية، كما كان من بينهم العلماء والدعاة، فحظوا لذلك بمكانة مرموقة لدى سلاطين هذه البلاد. وكان الدناقلة الأكثر نشاطاً وعدداً في وداي، فليس من المستغرب أن يرمقهم أعداء النجاح بنظرات الحقد والحسد.

كما يجب علينا ألا نتعجل فنقسوا على الجلالة نتيجة لممارستهم لتجارة الرقيق، لأنها كانت مرتكز التجارة آنذاك وسلعة الصادر الرئيسية في بلاد السودان، تورط فيها الملوك والسلاطين وعدد كبير من الناس، وبعد أن مُنعت هذه التجارة وأصبحت غير قانونية، امتنع الجلالة بدورهم عن ممارستها، فتحول عدد كبير منهم في الفاشر إلى تجارة التباك، مما يشير إلى أن هذه المدينة والمناطق التي تقع حولها هي مناطق الإنتاج الرئيسية لهذه السلعة التي كانت ومازالت تلقى رواجاً في شمال ووسط السودان. وعندما تعددت مخارج التجارة ومداخلها، وامتنع عدد كبير من السكان هذه المهنة، وبعد أن قل بريقها ولمعانها، بدأ الجلالة يتسربون إلى مهن أخرى ويفضلون العمل في عاصمة البلاد، لأنها الأكثر أمناً ومريحاً.